

في قداسة الكنيسة

للاب ارمنند اودين ، احد كهنة رهبنة قلب يسوع الاقدس*

١ ما هي القداسة الواجب ان تمتاز بها كنيسة المسيح ؟ - ٢ هل توجد هذه القداسة ، في أكنائس المنفصلة عن الكاثوليكية ؟ - ٣ وجودها وسطوعها في الكاثوليكية . - ٤ رد الاعتراضات .

١

ما هي القداسة التي يجب ان تمتاز بها كنيسة المسيح ؟

من اشرف واهم العلامات التي اراد الله ان تمتاز بها الكنيسة الحقيقية ، عن كل ما سواها ، القداسة ؛ لان الكنيسة ليست الا جماعة اقيمت لتكميل عمل فداء البشر ، وهو العمل الذي تولد ابن الله من السماء لاجله ، وتجد وبذل ذاته ضحية عنه ، وبالتالي قد اقيمت لتعليم الناس الصراط الذي يوصلهم الى الخلاص ، ولتطهير انفسهم من نجاسات الخطايا ، ولصيروتهم اعضاء حية لذلك الجسد السري ، الذي رأسه هو المسيح . وكيف تقدر الكنيسة على تحصيل تلك النيات ، ان لم يكن الروح القدس حاضراً فيها ، ومزاولاً قوته بتلك المواهب الالهية والمفاعيل المعجبية التي نعتب عنها بقولنا : ان الكنيسة هي مقدسة . فان هذه العبارة تدل على شيء مفرز من كل ما هو دنس وذليل ، وعلى شيء متحد بالله اتحاداً وثيقاً وجزيل الافادة لتسجيده تعالى ، ولحث الناس على محبته وعبادته . فلا شك اذن في ان المسيح اراد ان تكون كنيسته مقدسة ، وهذا ما يؤكده رسوله حيث يقول : « ان المسيح احب كنيسته ، وبذل نفسه عنها ، ليقدسها ويطهرها ، فتكون له كنيسة مجيدة ، لا عيب فيها ولا دنس ، بل هي مقدسة وجميلة » (افسس ٥ : ٢٥-٢٧)

وتعلم ان المخلص نفسه ، في اثنا صلاته لاجل تلاميذه ، بعد العشاء السري ، سأل اياه السماوي ان يقدسهم ويصونهم من كل شر ، ويحملهم واحداً في محبته (يو : ١٧) واعتبر ايضاً ما قاله لهم قبل ان يفارقهم بصعوده

(* صحیح عبارته ، وعني بشره النفس اسطغان فرحات اللباني .

الى السماء ؛ ها انا معكم على الدوام ، الى انتقضاء العالم . فان هذه الكلمات تتضمن وعداً منه عزّ وجل ، بان يطوي كنيسته ، في كل زمان ، جميع المواهب الروحية اللازمة لها ، لتقوم بجهتها . فتبلغ البشر الى الخلاص الابدي . واكثر هذه المواهب ضرورة هي القداسة . فان الله اذا يريد اعادة صريحة ومطلقة ، ان تتلأأ كنيسته دائماً بيهاء القداسة .

واذن ما هي هذه القداسة التي لا يجوز ان تخار من جمالها بيعة الله المسح؟ هل نتصورها منافية لكل عيب في المؤمنين ، حتى يصبحوا اشبه باللائكة منهم بالبشر ؟ كلا ، فان وجود جماعة كهذه على الارض ، لا يمكن الا باحدى المعجزات العظيمة التي يتدر الله على اجرائها . ولم يعد الله بمثل هذه الاعجوبة ، بل ولم تكن لازمة لباوغ غاية الكنيسة . وتاريخها يشهد بان اعضاءها ، لم يكونوا قط كلهم قديسين ، فتمّ فيها بذلك ما تنبأ به مؤسسها الالهي ، بمثل الشبكة الملقاة في البحر ، والجامعة بين جيد السك و رديته (متى ١٣ : ٤٧-٤٩) وبمثل المذاري اللواتي كان بعضهم حكيمات ، والبعض الآخر جاهلات (متى ٢٥ : ١-١٣) ورعاة الكنيسة انفسهم لم يزدانوا جيداً بالقداسة ، بل مسح الله بان تكون عيوب وشكوك في كل مراتب الساطة الكنسية ، كما مسح يسقوط احد الاثني عشر رسولاً .

لكن القداسة الكافية لتمييز كنيسة المسيح هي التي بين لنا وجودها في جماعة النصارى الاولين كتاب اعمال الرسل ؛ وزاها قائمة بثلاث صفات : اولها : محافظة الرسل على تعليم يسوع المسيح ، وسيمهم في اقتياد الجميع الى قبوله واتباعه . ثانيها : ازدهار اجمل الفضائل واعجبها في عدد كثير من المؤمنين ، وهذا بتأثير كلام الرسل في قلوبهم . ثالثها : اجراء الله ما كان لازماً من المعجزات لتأييد كلام الرسل ، واعلان صحة تعليمهم . فحيثما ظهرت لنا هذا المعامد متقارنة في اي جماعة كانت ، وجب علينا القول : ان هذه الجماعة هي مقدسة ، اي انه تعالى يمضدها ويمثل فيها ، وانها تفيد الناس وتمينهم على ان يصيروا صديقين في هذه الدنيا ، ومنبوطين في الاخرى . هكذا نرى في كتب الآباء الاجلاء انهم فهموا قداسة الكنيسة . فانهم يرونها عليها تارة

يذكر تطعيمها الذي لم يؤل تعليم المسيح بينه ، غير ممزوج بشيء من الآراء البشرة ، والاضاليل الوخيمة ؛ وطوراً بمديح ما يلح في الكنيسة من فضائل الكثيرين من أبنائها على اختلاف ما عاشوا فيه من الأزمنة والبلدان وسائر الظروف ؛ وحيناً ببيان ما صنمه الله ، ولا ينفك عن صنمه ، من الآيات المتروعة تأييداً لتعليم الكنيسة ، وتمجيذاً لبعض بنينا ، الذين بلغ إيمانهم وطهارة سيرتهم أسى درجة . فإذاً ، ان هذه الأدلة الثلاثة هي التي نعدّها شروطاً لازمة ليجوز القول عن جماعة انها مقدسة ، وبالتالي نطلب ان نشاهد ما محققة في المجتمع الذي يعترف بكونه كنيسة المسيح الحقيقية .

٢

هل توجد القداسة في الكنائس المنفصلة عن الكائلكة ؟

قد من بك ان القداسة ، التي يسوغ ان نطلبها في كنيسة المسيح ، تقوم بتلك الصفات الثلاث المذكورة ، وذلك تمييزاً لما عن غيرها . فان كان الامر كذلك ، فاني اثر للقداسة يظهر لنا في الكنائس التي انفصلت عن الكائلكة ؟ على ان بعضها قد غيرت تعليم المسيح ، وبدلته ، او خلطته بآراء جديدة ، صار بها مذهبها مختلفاً جداً عما اعتقدته كنيسة القرون الاولى . وهذا المذهب يظهر خاصة في الشيع البروتستانية التي تأسست على مبدأ حرية الفرد في تأويل الاسفار الالهية ، مع رفض التقليد والباطة الكنسية . ولا يخفى على احد ما اتى به هذا المبدأ من الثمار الوخيمة . فان متبعيه انقسموا الى بدع لا يحصى عددها ، وانتهى بعضهم الى انكار اهم الحقائق الدينية ، او الارتباب فيها . فواضح اذن ان الكنائس البروتستانية لم تحافظ على تعليم المسيح ، واذن فليست مقدسة . غير ان هذا الحكم ، لا يقع على الكنائس الشرقية التي تسمى ارثوذكسية وتفتخر ببنائها في الايمان بكل ما اعتقده مؤمنو الاجيال الاولى . ولكن بأي طريقة نرى تعليم المسيح محفوظاً في تلك الكنائس ؟ هل يدرسه كهنتها حتى يتعلموا منه فيتكفروا من تهذيب الشعب فيه ؟ او هل يعتني رعاتها بصيانة رعيتهن من ضرر الجهل الديني ؟ وهل يثابر خوارنتها على ارشاد بنينهم

الروحيين بالمواظب الخلاصية ؟ وهل يقوم فيها بعض اصحاب العلم والغيرة لمناجبة التماليم الفاسدة التي يسمي البروتستانت والزنادقة في نشرها، محاولين تقويض اركان الايمان المسيحي ؟ فليجاب عن هذه الاسئلة المطلعون على حقيقة احوال الكنائس الشرقية . ومخاف جداً ان كل قارئ ملهم بما يبينه التاريخ ، وما يمرضه على انظارتنا الاختبار اليومي ، يُضطر الى الاعتراف بان ذلك كله ينقص الكنائس المنفصلة نقصاً يروى له جد رثاء . فليس التلميح الالهي اذاً محفوظاً فيها ، الا كحرف مهمل يُكتب ولا يُقرأ .

هذا ما يجب قوله ، بالرغم من اسفنا الشديد ، في الصفة الاولى المتزمنة ، لتحب احدى الكنائس مقدسة . وماذا تقول الآن في الصفة الثانية ، وهي سطوع الفضائل العجيبة في قوم من ابنا تلك الكنيسة التي تدعي بكون مؤسسها هو المسيح . وهنا رب مقترض يزعم ان البحث متمدر في هذا الموضوع ، لان الفضيلة تستر في مواطن النفس ، فلا يقدر درجتها سوى الله الذي يبدو له كل خفي . فنجيب مقترنين بجزئنا - في الغالب - عن تقدير درجات الفضيلة ، فربما ارتقى منها الى سمو فرائق من لم يلتفت احد اليه . واكن للفضيلة علامات ، كما للرزياة ، تكفي لتسكننا من التمييز بين اصحابها ، ومن معرفة ما اذا كان في جماعة ما عدد كبير ممن يتلألاً فيهم كمال التقوى وطهارة البسيرة . فاذا استقيمتنا التاريخ عن احوال الكنائس المنفصلة ، فباذا يجيبنا ؟ ولم قديماً ظهر فيها ، منذ آن انفصالها ؟ نعم ان القديسين كثروا قديماً في الاقطار التي تسود فيها اليوم المذاهب الغير الكاثوليكية ، فيجزر للانكليز مثلاً ان يقتخروا باجوات النسك التي ازهرت في جزيرتهم حين استعقت ان تلعب بجزيرة القديسين . وكذلك للامان ان يذكروا ويعظموا نموذجات القداسة العجيبة التي ازدانت بها بلادهم ، في القرون الوسطى . واكبر فخر ايضاً للشرقيين ، ان يكونوا ابنا تلك البلاد الشريفة التي وُلد فيها قدوس القديسين ، وامه الكلية الطهارة ، ورسله ، وغيرهم عدد كبير من الشهداء ، ومعلمي الكنيسة والرهبان والفتاك الذين طار صيت محامدوم في كل العالم ، واعتادت كنائس الشرق والقرب ان تكرمهم وتستشفهم ، ولم ترل فيها كتب اولئك الآباء

الشرقيين محفوظة ومعتبرة جداً ، تتروق المكين على مطالعة الدروس اللاهوتية الطائفة ، وهم آباؤنا في الايمان الذين خلدوا مجد اسمهم بما جاهدوا به من التيقظ والتجدد ضد مساوي المتدينين ، فما اجزل الشرف واحسن البهاء للذين اكسبك ايها قديسوك القدماء ايها الكنيسة الشرقية ا ان هذا المتأسف لم يهتم كل من يراجع تاريخ تلك الازمنة البعيدة سواء كان شرقياً او غربياً . غير ان هذا التعجب يقترن بامر التأسف ادى متقابلتنا بين تلك الحوادث الماضية ، وبين الحالة الحاضرة . فاننا نرى الآن المقم حيث كان الحصب ، والجمود حيث كانت الحياة . فقرر عدد القديسين هناك ، وقد كانوا كثيرين ، في القرون الاولى . فمن له ان يتأمل هذا التغير القريب دون ان يتعبه الحزن والنم ، وكأني به يأل نفسه : لماذا ضفت الحياة في تلك الكنائس التي ظهر فيها قديماً كمال التضادة ، وملئ التضارة ، وكيف اصحبت ، ايها الكنيسة اليونانية ، قاصرة عن توليد قديسين كثيرين ، ينضون الى صفوف ابنائك الذين اعلوا شأنك في العصور الاولى ؟ فاي متى يا ترى ابتدأت حالة المقم هذه المكتدة ؟ أليس في أوان الانشقاق ؟ بلى ا ، لان اليوم الذي ادعت فيه الكنائس الشرقية باستقلالها عن الكرسي البطرسي ، انما هو بدء تضاول القداسة ، وقد كان ابطالها من قبل كثيرين ، ككثرة النار الجلية على غصون الاشجار .

وماذا تقول الآن ، اذا أجريننا الكلام على الاسرار المقدسة التي وضعها يسوع المسيح في كنيسته باكتنية روحية تجري بها نمسه الى انفس المؤمنين ؟ اننا نلاحظ ، من هذا الوجه ايضاً ، فرقاً عظيماً بين الكنائس الشرقية وشيخ البروتستان . فانه من اشنع اضاليل هذه الجماعات أنها نبئت اغلب تلك الاسرار الجلية ، وبالجهد حافظت على السر الذي هو اشد مما سواه ضرورة للخلاص الابددي ، اعني به الهاد . ويظهر ايضاً ان قوماً من البروتستان قد غيروا طريقة الهاد تقيماً يحول دون صحته .

فله الحمد والشكر على انه لم يسمح بان يصيب مثل ذلك الكنائس الشرقية . وخاصة الكنيسة اليونانية ، التي لم يرتب احد حتى اليوم في صحة

عامدا ، وكهوتها ، وبأبي اسرارها . ولكن هل يكفي وجود هذه الاسرار ، في جماعة ، ليسوع القول ، انها جماعة مقدسة ؟ كلا ! لان الاسرار وان كانت دائما بذاتها أدوات الهية ، قادرة على تقديس النفوس ، فانها مع ذلك لا تقديس سوى من يقبلها بحسن الاستعداد . ومن ذا الذي يحصل على هذا الاستعداد الجيد الا من تعلم ان يُحيي الايمان في نفسه ، وان يطهر قلبه بالندامة . ولا يخفى ان هذا التأهب ضروري ، خصوصاً لقبول سر التوبة . فان حلة الكاهن ، لا تقيد شيئاً من لم يحرك نفسه على بنض جميع خطاياها الميئة ، وكيف يُرجى ان يتمدّ لذلك من لم يتعلم شيئاً من المبادئ الدينية ، وهو لم يُلَقَ عليه قط ارشاد روحي ، فلا يدري ما هي الندامة ، ولا يحظر في باله وجوبها ، ولم يتعود الا تلاوة بعض نوافل روحية وعبادات ظاهرة ، كرسم اشارة الصليب ، واحناء الرأس ، وما اشبه ذلك . فاي ثمرة يمكن ان يجنيها هذا المسكين من اعترافه ، ومن حلة الكاهن ؟ واحسرتله ! ان هذا الجهل والعمى لها حالة اغلب المنفصلين ، فتتجبه ذلك واضحة بقدر كونها مؤلمة ومزعجة . اي ان ما يقبلونه من الاسرار لا يكاد ينفع لتقديس انفسهم ، ولخلاصهم الابدي .

بقي ان نتكلم عن المعجزات في الكنائس المنفصلة عن الكاثوليكية ، فهل يجري فيها شيء . من ذلك ، وتاريخها ساكت عن هذا الامر ؟ اللهم الا بعض حوادث خارقة المادة ، قد ثر خبرها . ولا ننكر احتمال صحتها الا اننا نشك ان يجري ، لكل واحد منها ، تحقيق مدقق . وان ثبت ان هناك آيات حقيقية ، نقول ان الله صنعها جزاء لفضل بعض الذين يعبده في تلك الكنائس بلامة النية ، كما تزعم انها حال كثيرين . ولكن هل تكفي حوادث قلائل كهذه اعلاناً لقدامة مذهب من تمت على يدهم ؟ كلا . فانه سبحانه وتعالى ، يوزع مواهب نعمه كيفما شاء . وحيثما اراد ، فلا بأس اذن في ان يفتق منها شيئاً على بعض خدامه المستقيمي النية ، وان كانت الكنيسة التي ينتمون اليها منفصلة عن تلك التي انشأها يسوع المسيح ، وهم بذلك غير دارين .

(له صلة)